٥٥ الإمام العتريس المنادى بحرب الصليبيين

فى مواجهة ضريح السيدة زينب رضى الله عنها، يشد انتباه الزائر إلى هذا المكان الطاهر، وجود ضريحين: أحدهما يضم رفات رجل صالح، هو الإمام العتريس، شقيق العارف بالله إبراهيم الدسوقى المدفون بدسوق فى محافظة كفر الشيخ، والذى ينتهى نسبهما إلى الإمام الحسين، فالإمام على بن أبى طالب، وزوجته فاطمة الزهراء رضى الله عنهم أجمعين.

والإمام العتريس كما تقدمه الكتابات القديمة: هو السيد الكامل، والصوفى الواصل، والعابد الزاهد، والمتبتل الناسك محمد بن أبى المجد بن قربس، نشأ فى بيت علم وفضل تقوى وصلاح، شرف ومجد. فأبوه أبو المجد بن قربس كان عالماً دينياً. انتمى إلى الصوفية، وسلك طريقها. وأمه السيدة فاطمة بنت أبى الفتح الواسطى، تلميذ الإمام أحمد الرفاعى مؤسس الطريقة الرفاعية بالعراق، والذى أوْفَدَ أبَا الفتح الواسطى إلى مصر ليستقر بالإسكندرية وينشر فيها الطريقة الرفاعية.

وأقام هذا العالم الصوفى ـ جد الإمام العتريس ـ مدة بالإسكندرية، كان يعظ الناس ويرشدهم بمسجد العطارين. وتذكر الروايات التاريخية بأن هذا الجد كان أستاذاً للعارف بالله أبى الحسين الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية. وكانت بنته السيدة فاطمة محدثة فى الدين، حافظة للقرآن الكريم، متقنة للحديث الشريف وتفسيره.

هذا البيت الكريم الذى كان يجمع هذين الأبوين الصالحين ـ الرجل الصالح أبا المجد وزوجته السيدة فاطمة ـ نشأ فيه الإمام العتريس وإخوته العشرة الذين برَزَ

منهم العارف بالله إبراهيم الدسوقى، وأخوه محمد الفصيح المدفون بسنهور قرب دسوق والعارف بالله شرف الدين المدفون بدسوق.

وطبيعى وقد ولد ونشأ وتربى فى هذه البيئة الدينية أن تكون اهتمامات الإمام العتريس منذ نعومة أظفاره دينية صرفة. فيبدأ بحفظ القرآن، والكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، ثم يهتم بالتفسير. فيمم وجهه إلى كتب التفسير لمن سبقه من الأئمة والعلماء والفقهاء، وأن يدرس أصول الفقه على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، وأن يسلك بعد ذلك مسلك الطرق الصوفية المنتشرة فى ذلك العصر، حيث كانت هذه الطرق خير وسيلة يلوذ بها المسلم فى مواجهة ما يجرى من أحداث تزيد من قلقه واضطرابه، كهجمات التتار فى الشرق، أو الصليبيين فى الغرب على بلاد الدولة الإسلامية التى أصابها التمزق والفرقة، وأصبحت عاجزة عن ردِّ الغزاة فى أغلب أمصارها، كان على المسلم فى ظل هذه الأحداث أن يلوذ ويلجأ إلى أحد الطرق المتصلة بالدين وكانت الصوفية هى المنتشرة فى ذلك الوقت، فانضم إليها الإمام العتريس.

وأما عن تاريخ ميلاده، فبالرجوع إلى رسالة الصبَّان التى يذكر فيها تاريخ هذا الإمام الصالح ونسبه إلى آل البيت من جهة الإمام الحسين رضى الله عنه، وأن يذكر أن الإمام العتريس هو الشقيق الثالث فى الترتيب للعارف بالله إبراهيم الدسوقى، الذى ولد سنة ثلاث وعشرين وستمائة للهجرة. فمعنى هذا أن الإمام العتريس ولد بعد هذا التاريخ، أى فى نهاية عصر الدولة الأيوبية التى انتهت سنة ثمان وخمسين وستمائة للهجرة. يؤيد ذلك ـ وهو ما وصل إليه الدارسون ـ وما ذكره الصبان فى رسالته الشهيرة، من أن الإمام العتريس، وشقيقه العارف بالله القطب إبراهيم الدسوقى. قد شاركا المسلمين فى حرب التتار والصليبيين فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأوائل سلاطين دولة المماليك البحرية.

وقد استقر الإمام العتريس فى القاهرة فى عهد السلطان بيبرس بعد انتصار المصريين على التتار فى موقعة عين جالوت المشهورة، واتخذ مكاناً له إلى جوار الأزهر الشريف، وظهر علمه وفضله، وذاع بين الناس صيته، وتجاوزت شهرته القاهرة إلى بعض القرى والمحيطة بها، والتف حوله مريدو الطريقة البرهامية. هى الطريقة التى تنتسب إلى شقيقه القطب إبراهيم الدسوقى كما مر بنا.

ولعل هذا يفسر لنا مدى ارتباط الإمام العتريس بشقيقه القطب إبراهيم الدسوقى ارتباطاً وثيقاً جعله يهتم بأتباعه ومريديه بعد وفاته.. هذا الارتباط الذى يمكن أن نلمحه فى بيت من المُدَوَّن على اللوحة المثبتة على ضريحه، وهو:

بِسِرِّ أبِى المجد الدسوقى وصِنْوِه محمد العتريس كُنْ متوسِّلاَ

أما كيف كانت علاقته بالمسجد الزينبى بالقاهرة من القوة إلى درجة أنه أوصى بأن يدفن فى رحابه إلى جوار السيدة زينب فإن لذلك سبباً.. صحيح أن الإمام العتريس من أحفاد الإمام الحسين شقيق السيدة زينب رضى الله عنهما، وصحيح أيضاً أنه كان من الصالحين بشهادة الكتابات القديمة والحديثة، إلا أن هذا السبب لا يكفى لكى يُدفن إلى جوارها دون غيره ممن ينتسبون إلى آل البيت، أو الرجال الصالحين.

ولعل السبب المباشر لذلك هو أن الإمام العتريس كان دائم التردد على هذا المسجد بشكل تصفه بعض المصادر والروايات بأنه استقر به الحال إلى الجلوس فى المسجد ليخدمه ويرعاه، وفى الوقت نفسه كان يقيم حلقات من الدرس حول سيرة صاحبة المقام ونسبها الطاهر، وفيها أيضاً كان يُبَصِّرُ الناسَ فى أمر دينهم، ويعلمهم ويثقفهم، ويرشدهم إلى قواعد هذا الدين الحنيف، وكيف أن فيه خير الدنيا والآخرة.

وهكذا ظل الإمام العتريس ملازماً لهذا المقام الزينبى الطاهر، سائراً على الطريق الذى بدأه السلف الطاهر من أجداده من آل البيت.. حتى اعتبره الناس إماماً لهذا المسجد لما أدركوه منه من علم وفضل.. حتى انتقل إلى رحمة الله فى أواخر القرن السابع الهجرى، فكان لابد أن تنفذ وصيته التى تطلب دفنه فى رحاب المقام الزينبى بالجهة البحرية المواجهة لضريح هذه السيدة الطاهرة.

ولأن الإمام العتريس كانت له الكثير من الإنجازات والأعمال والكتابات، فقد وجد مدفنه اهتماماً ملحوظاً بعد ذلك، حيث أُقيم على المدفن ضريح جديد، أمر بإنشائه الوالى سعيد باشا، تظلله قبة كتب عليها كلمات تشير إلى نسبه الطاهر، وصلته بجده الإمام الحسين رضى الله عنه، وقرابته لشقيقه العارف بالله إبراهيم الدسوقى، كما ذكر علمه وفضله وخدمته للمقام الزينبى الطاهر.

* * *